كتاب

الإسلام دين العلم والمدنية

تأليف

الشيخ محمد عبده

الإسلام دين العلم والمدنية

ألف هذا الكتاب الشيخ محمد عبده.

الحقيقة أنى أريد أن أقول (من عيون رجال الدين) فالموضوع تكلم عنه مسلمون بل ومسيحيون مثل سيجريد هونكه الألمانية و «سارنون» و «لالاند» و «سخاو» وغيرهم.. ولكني اخترت هذا الكتاب لأن صاحبه رجل دين فاختيارى الكتاب ليس لعرض موضوع راسخ ولكن لعرض الأفق الواسع المضيء والمستضيء لصاحبه تأكيدا لسماحة الإسلام ورحابة أفقه وصدره معا، واحترامه الرأى، وقبوله الاجتهاد.

حيث يشق الأسماع ويشق عليها في أواخر القرن العشرين هذه الكلمات «الفتنة الطائفية» – «التعصب» من الجانبين – «الحرام» – «الحلال».

حين يغص صفاء الإنسان بهذه الكلمات فى أيامنا نحن على مشارف القرن الحادى والعشرين، نرى الشيخ «محمد عبده» فى القرن التاسع عشر، يؤلف جمعية سياسية دينية باسم «جمعية التقريب بين الأديان السماوية» تعمل على إزالة الشقاق بين أهلها، والتعاون على محو الاستعمار من الشرق، وتعريف الغربيين بحقيقة الإسلام من أقرب الطرق، وقد انضم إلى هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية فى الآستانة، وبعض الانجليز أنفسهم.

وانضم إلى عضويتها القس «اسحق تيلو» أحد رجال الدين فى لندن بل كان هو داعية لها فى انجلترا. كما انضم إليها «مستر جى دبليو لينتز» مفتش المدارس بالهند، وكان

الأستاذ الإمام رئيسها وصاحب الرأى الأول فى موضوعها ونظامها، وكان ميرزا باقر هو الأمين العام لهذه الجمعية.

وقد كتب مستر جى دبليو لينتز، فى ذلك الحين مقالا بجريدة «الديلى تلغراف» بعددها الصادر فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ يقول إنه أتيح له تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم فى مكتب إسلامى بالآستانة قبل حرب القرم، وأنه فتش مئات المدارس الإسلامية فى الهند وهو بذلك يشهد بأن ما يشاع عن الإسلام فى أوربا مما يلصقه به أعداؤه، بهتان لايصح أن يقبله عاقل أبدا.

ولا يتناقض مع هذه الجمعية وأهدافها قول الشيخ محمد عبده (إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء وجاءت برفع القصاص والزهد فى السلطة والدنيا جميعا، وهنا يقول الأستاذ الإمام:

(يعجب المرء كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى المنتسبين فى عقائدهم إليه، فهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورقة العيش فيها، ولايقفون عند حد فى استيفاء لذاتها، ويسارعون فى افتتاح الممالك والغلب على الأقطار الشاسعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب، ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة، ويستعملها بعضهم فى بعض ويصولون بها على غيرهم، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال، ويصرفون عقولهم فى أحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها).

ووجه العجب أساسا أن المرء يرى على الجانب الآخر، الإسلام، الذى يدعو إلى القوة سبيلا إلى المهابة حتى لا يجرؤ عدو على التقحم أو انتهاك بلدانه، شعوبه مستضعفة حتى حين تأخذ بأسباب القوة فإنما تلتمسها من غيرها مقابل الكثير من مالها وإرادتها معا.

والأستاذ الإمام محمد عبده يقف فى كتابه عند موضوع خطير له أبعاده فى المعاناة الإسلامية الحاضرة.. ذلك هو الوضع والوضاع فى الدين الإسلامى يقوم به أقوام (بلباس الذين خلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت بينهم قواعد الجبر، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولاتثبتها الحقائق، وما وضعه كذبة النقل من

الأحاديث، ينسبونها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب، وفيها السم القاتل لروح الغيرة، وأن مايلصق منها بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم.

وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة، ومبانيه الثابتة التى دعا إليها النبى وأصحابه).

وفى كتاب الإمام رده المفصل على هانوتو الذى ناصب الإسلام العداء ولم يلبث أن كشف عن فزعه من خطر الإسلام كما تصوره.. يعرب عن هذه قوله: (لايوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرا فى الآفاق وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه).

لقد وصف هانوتو الحج والحجيج وصف «ظاهرة» يرصد كل كبيرة وصغيرة فيها.

إنه قلقه.. أى قلق الغرب الذى يتبدى فى أكثر من صورة يقول هانوتو (فى مسألة علائقنا مع الإسلام نجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا بينما يصرح هانوتو أن السلطة المدنية فى أوربا أهم وأشد من الرابطة الدينية، أوربا مقدم عندها مصلحتها السياسية والاقتصادية ويأتى الدين بعد هذا. لقد تحالفت مع الدولة العثمانية ضد دول مسيحية لا إيمانا بعدل، أو إنصافا للإسلام ولكن لأن مصلحتها السياسية والدينية تقتضى هذا.

الدين فى أوربا وسيلة سياسية لاغاية إنسانية كما جاء فى الرد الثانى للإمام على هانوتو (مسيو هانوتو لاينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار وأن الارساليات والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى إعداد الشعوب إلى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه إليها، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم، وفى فتح المغالق التى لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها، وتمهيد السبل التى لايمكن لساعد الجندى وحده أن يمهدها).

تكلم الأستاذ الإمام فى تفصيل عن سماحة الإسلام فقد جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين (لهم مالنا وعليهم ما علينا) و (من آذى ذميا فليس منا).

يقول الأستاذ الإمام (استمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام.

ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام، عندما بدأ الضعف فى دولة الإسلام – وضيق الصدر من طبع الضعيف – فذلك مما لا يلصق بطبيعته، ويخلط بطينته).

وحين تفرق الشرائع بين الابن وأبيه إيثاراً للإيمان بها، يقول الإسلام فى كتابه فى شأن الوالدين المشركين (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى) وساق الأستاذ الإمام فى مجال المقارنة ما جاء فى سفر تثنية الاشتراع:

(وإذا غواك سراك أخوك ابن أمك أو ابنك أو بنتك أو امرأة حضنك أو الشعوب القريبة منك أو البعيدة عنك من أقصاء الأرض إلى أقصاها فلا ترضى منه ولاتسمع له ولاتشق عينك عليه ولاترق له ولاتستره بل قتالا تقتله).

وفى سفر التثنية أيضا «٢٠ : ١٠–١٦» ما نصه (حين نقرب من مدينة لتحاربها ادعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك الذى أعطاك الرب الهك، وهكذا نفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما).

لقد أعطى الإسلام صورة إنسانية مشرفة لمودة المخالفين له فى العقيدة.

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة، وهى كما هى. وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ولايخفى ما فى صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة ومايكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر؟ وما أحلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم. يقول الأستاذ الإمام:

أيغيب عنكم ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح، الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الأديان السابقة عليه؟ ولايخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذى يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها).

تحدث الأستاذ الإمام عن جمع الإسلام بين مصالح الدنيا والآخرة.

فالرسول عليه السلام يقول لمن استشاره فيما يتلقاه من مال (الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس).

الإسلام يبيح الإفطار فى رمضان إذا خشى من الصوم، المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه.

وفى هذه العبارة سماحة ما بعدها سماحة.. يبيح الله للمؤمن أن يتخفف من فريضة، إذا غلب على الظن مجرد الظن، الضرر من أدائها.

ومن سماحة الإسلام وتلطفه فيما يطلبه من واجبات: هذا المثال:

السعى إلى الجمعة واجب إلا إذا كان هناك وحل غزير، أو مطر كثير، أو ما يوجب تعبا ومشقة فيسقط.

وهكذا القاعدة فى الإسلام:

صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده معتزا بأن الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.

أقول توهج الإسلام بحب الحياة فاعترف بمتاعها وطيباتها وطيوبها. فلا انطوائية ولا قوقعة ولا زهد ولا رهبنة. زهاده اختيار وأسلوب شخصية.

الإسلام أنيق يحب الجمال والزينة والنظافة. أوجب طهارة الجسم كالروح وزكى الطيب والخضاب وأباح التزين، وأتاح المتعة فى غير حرام، وألزم بالوضوء والاغتسال، فكان نظاما جامعا للدين والدنيا..

ويفرض هذا نصا ... وطقسا ... ثم بالإيحاء أو الإغراء أو الاقتداء حين يبثه فى ثنايا أقوال ومعان كثيرة ولكن دون إسراف.

بل نهى عن الغلو فى الدين.

يقول الأستاذ الإمام (خشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الأخرى فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فنكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا إذ قال: (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخر ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض. إن الله لايحب المفسدين).
(سورة القصص آية ٧٧)

ومما ألمح إليه الأستاذ الإمام أن:

طلب العلم فى الإسلام دون قيد ودون تخصيص أى علوم الدنيا وعلوم الدين.

وعقد الأستاذ الأمام فصلا إضافيا عن (اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية) يقول الفيلسوف جوستاف لوبون (إن المسلمين أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين).

وحين اتهم «رينان» الاسلام بالجمود رد عليه الأستاذ الإمام ردا مفحما ولكنه فى الوقت نفسه ندد بجمود بعض المسلمين لا الإسلام فى باب اللغة كما ندد بجناية الجمود (على النظام والاجتماع) بل على (الشريعة وأهلها) ... ندد بجناية (الجمود على العقيدة) ولكنه فى النهاية قال إن (الجمود علة تزول) وأسهب فى شرح هذا.

تكلم عن أمراض المجتمع الإسلامى وأسبابها وبعد هذه الأسباب عن الدين فهى لم تكن لتظهر وتتفشى وتستشرى لو فهم الدين فهما صحيحا. وفى حديثه عن هذه الأمراض تشخيص وتطبيب فهو، يطب، لها ببيان وسائل البرء والتخلص منها. وهذا شأن الدعاة الأذكياء الواعين.

هذا النموذج العالى من رجال الدين ما أحوجنا إليه.

ليت خطبة الجمعة التى تخاطب الجموع الغفيرة تستشرف إلى هذا المستوى بدلا من (الكلام) المعاد فى الحلال والحرام...

من أجل هذا اخترت كتاب الإمام، واحدا من عيون الكتب.